ISSN: 1812-0512 (Print) 2790-346X (online)

Wasit Journal for Human Sciences

Available online at: https://wjfh.uowasit.edu.iq

The Manifestations of Intertextuality in the Poetry of Khaled Ali Mustafa

* Corresponding Author
Wisam Abbas Jaaja
Wasit Unive5rsity, College of Arts

Email:
wabbas@uowasit.edu.iq

Keywords Intertextuality, Poetry, Modernity. Criticism

Article history:
Received: 2025-04-22
Accepted: 2025-04-29
Availablonline: 2025-05-01

ABSTRACT

This study examines the poetry of Khalid Ali Mustafa as a model of contemporary poetic experience deeply engaged with the Palestinian cause, employing intertextuality as both an artistic and visionary tool. The analysis reveals that the poet does not invoke classical, religious, or poetic texts merely for aesthetic embellishment or imitation; rather, he recontextualizes them within his unique poetic vision, thereby imbuing his verses with layered semantic depth. The poems exhibit a narrative structure and a dense symbolic repertoire that reconstruct the Palestinian landscape as a space of resistance and memory. Epic features are also present in his work, transforming personal experience into a collective one and rewriting Palestinian suffering through a language that merges symbolism, history, and reality. Thus, the poet establishes a poetic presence that aligns with modernist poetics—engaging with tradition while simultaneously transcending it—and conveys a profound humanistic and national message.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution License (CC BY 4.0). https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/ .
DOI: https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol21.Iss2.1011

تجليَّات التَّناص في شِعر خالد علي مصطفى

م. د. وسام عباس جعيجع
كلية الآداب/جامعة واسط

المُستخلص

تتناول هذه الدراسة شعر خالد علي مصطفى بوصفه نموذجًا لتجربة شعرية معاصرة تتفاعل بعمق مع الهمّ الفلسطيني، مستثمرة التناصّ بوصفه أداة فنية ورؤيوية. وقد بيّنت القراءة كيف أن الشاعر لا يستدعي النصوص التراثية والدينية والشعرية لمجرد التجميل أو التأثر؛ بل لإعادة إنتاجها ضمن رؤيته الخاصة، مما يمنح قصائده بُعدًا دلاليًا مركبًا.

وتُظهر النصوص بنيةً سرديةً واحتشادًا رمزيًا يعيدان تشكيل المكان الفلسطيني كحيز للمقاومة والذاكرة. كما تتبدّى في شعره ملامح ملحمية تُحوِّل التجربة الفردية إلى تجربة جمعية، وتُعيد كتابة الألم الفلسطيني بلغة تمزج بين الرمز والتاريخ والواقع. وبذلك يرسّخ الشاعر حضورًا شعريًا ينتمي إلى القصيدة الحديثة، المتفاعلة مع التراث والمتجاوزة له، والمحمّلة برسالة إنسانية ووطنية عميقة.

الكلمات المفتاحية: التناص، الشعر، الحداثة، النقد

المقدمة:

تهدف هذه القراءة النقدية إلى استكشاف تجليات التناص في شعر خالد علي مصطفى، الذي يرى الباحث أنه يمثِّل ملمحًا جماليًا مهمًا في شعره، أسهم في ثراء التجربة الشعرية لهذا الشاعر، ومنحه خصوصية إبداعية وثقافية ضمن سياق شعراء جيل الستينات في العراق. وتزداد هذه الخصوصية عمقًا بالنظر إلى الخلفية الشخصية والثقافية للشاعر، إذ نزح مع أسرته من فلسطين ليستقر في العراق أواخر أربعينيات القرن العشرين، واتخذ من مدينة البصرة مقرًا أول، وهي المدينة التي شهدت انطلاقة حركة الشعر الحر، وربطته خلالها علاقات وثيقة برموزها البارزين، وفي مقدمتهم رائدها الشاعر بدر شاكر السياب. ولم تنتظم هذه الدراسة وفق تقسيمات التناص إلى ديني ، وتاريخي، وأدبي، وغيره؛ كما هي الحال في عدد من الدراسات المماثلة؛ لأنها أولًا: ليست دراسة لأشكال التناص في شعره، وإنما لتجلياته الفنية والثقافية وغيرها. وثانيًا: لأن هذه الأشكال في الغالب، لا تأتي منفصلة في شعره، وإنما متداخلة ومتفاعلة ضمن نسيج القصيدة الواحدة، والجملة الواحدة كما سنرى، لذا ستكون مضمنة في داخل تحليلات هذه الدراسة التي زاوجت بين المنهجين النصي الشكلاني (دراسة التناص)، والمنهج التاريخي، في قراءتها لنصوص الشاعر والمؤثرات السياسية والثقافية التي تجلَّت فيها.

لقد أسهمت التحولات المختلفة في حياة الشاعر نقطة انعطاف حاسمة في تكوين وعيه الفني، وكان لها أثرٌ بالغ في تشكيل رؤيته الشعرية. كما تفاعلت تجربته الشخصية مع المتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدها العالم العربي والعالم بأسره؛ ما جعل شعره متميزًا بقدرته على دمج المؤثرات المتعددة في نسيج شعري كثيف الدلالة، وتجلى التناص في شعره بأشكال مختلفة، خاصة مع ذلك الذي يستدعي الرموز الدينية والتاريخية والأدبية في التراث العربي بوصفه نوعًا من الانتماء والتشبث بالجذور في مواجهة العنف الصهيوني، والتهديدات الكبرى التي تتعرض لها الهويات الاجتماعية.

الإطار النظري وموضوع البحث:

يُعدّ التناص من أبرز المفاهيم النقدية الحديثة التي أسهمت في تجديد آليات القراءة والتأويل، وتوسيع أفق فهم النصوص الأدبية ضمن شبكة من العلاقات النصيّة المتشابكة. وقد برز هذا المصطلح في الخطاب النقدي الغربي في سياق ما بعد البنيوية، لا سيما مع أعمال الناقدة جوليا كريستيفا، (ينظر: كرستيفا، 1997م) التي استلهمتها من أطروحات باختين، (ينظر: الكلمة في الرواية، باختين،2000م)؛ لتؤكّد أن كل نصّ هو نسيج من اقتباسات، وأثر من نصوص سابقة، حاضرة فيه بصورة واعية أو غير واعية.

ولم يلبث المفهوم أن وجد صداه في النقد العربي الحديث، ليُوظَّف في قراءة الشعر والرواية وسائر الأجناس الأدبية، بوصفه أداة تكشف عن آليات التفاعل مع التراث والدين والنصوص العالمية والمحلية. فالتناص لا يعني التكرار أو الاستدعاء الآلي، بل يحيل إلى إعادة إنتاج المعاني داخل بنى جديدة، تسهم في تعميق الرؤية الفنية والفكرية للنصّ. ومن هذا المنطلق، يبرز التناص بوصفه جسراً يصل الماضي بالحاضر، والتقليد بالتجديد، والانتماء بالابتكار. ولقد وجد الباحث في توظيف مفاهيم التناص النقدية قدرة للوقوف على المفاتيح التأويلية الجوهرية في شعر خالد علي مصطفى، لما تكتنزه نصوصه من مستويات متعددة من الإحالة إلى التراث العربي والإسلامي، والنصوص الدينية، والموروث الشعري القديم والحديث. وقد تجلّى هذا التوظيف في بنية شعرية معاصرة تعكس وعياً عميقاً بالذاكرة الثقافية والرمزية، وتُعيد تفعيلها في ضوء قضايا الإنسان العربي المعاصر، وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

إن استعمال منهج التناص في قراءة شعره لا يأتي لمجرد الكشف عن علاقات التداخل النصي، بل لتفكيك البنية الدلالية والمعرفية التي تقوم عليها قصائده، ولرصد كيفية اشتغاله على إعادة إنتاج المعنى من خلال محاورة النصوص السابقة، وتحويلها إلى أدوات فنية تُسهم في تشكيل رؤية شعرية حديثة، وهي رؤية طبعت أساليب شعراء الجيل الستيني بطابع خاص، وتجلت بتجليات مختلفة واتجهت نحو الجمع بين البعد الرؤيوي والأشكال التعبيرية، كما نلاحظ ذلك بوضوح في شعر فاضل العزاوي على سبيل المثال، وهو أحد مجايلي خالد علي مصطفى (الهاشمي، 2017). ومن هنا، فإن المنهج التناصي لا يضيء الجانب الفني وحسب، بل يكشف أيضاً عن أبعاد المقاومة الثقافية الكامنة في خطابه الشعري.

بنية التناص والدلالة الرمزية لصورة الطلل:

يمثِّل النص الشعري نموذجًا متقدمًا للتفاعل النصي، لا سيّما في سياق الشعر الفلسطيني الذي يتغذى على ذاكرة جماعية حافلة بالتجربة، والمأساة، والمقاومة، والحنين. فالنص ينفتح على شبكة من النصوص السابقة، لا بمعنى الاقتباس أو الإشارة، بل بوصفه امتدادًا وتأويلاً جديدًا لخطاب فلسطيني متشعب، يعيد إنتاج ذاته من خلال استحضار رموزه وصوره، وتأثيث معناه بالآخر الغائب/الحاضر ونجد أن الشاعر يقف على مفترقات الطرق والأمكنة، معبرًا عن رِحلتين: رحلةِ الغربة ورحلة الاغتراب، فهو دائم الترحال بين منافي الرمل، ممزَّقاً بين سكاكينِ الغُربةِ والاغتراب، بين أمل تحقيق الحُلم، والواقع الذي تصنعهُ النَّكباتُ والحروبُ والتَّخلُّف، لذلك يبدو العالم بين يديه صورة طللية كبرى كما في (المعلقة الفسطينية)، (مصطفى، 1982):

" **شاخت سبلُ الأرض**

غرباء تلاحقنا السكين وراء السكين

لم نحمل من مدنِ الذكرى

غير حقائب أثقلها الجرحُ وبعض حنين".

تُستهلّ القصيدة بصورة عميقة دالة: "شاخت سبلُ الأرض"، وهي عبارة مشبعة برمزية متداخلة، تحيل إلى الزمن المثقل بالخذلان والتعب الوجودي، حيث تفقد الأرض دورها كأفق مفتوح وتتحول إلى كيان منهك، عجوز، عاجز عن العطاء. إنّ هذه الصورة تنفتح تناصيًا على التراث الشعري الفلسطيني المعاصر، حيث الأرض هي محور الهوية، لكن هنا، يجري تقديمها بوصفها ضامرة، متآكلة بفعل الاغتراب والقهر.

في السطر الثاني: "**غرباء تلاحقنا السكين وراء السكين**"، يظهر التناص مع بنية الألم المتكرر في الأدب الفلسطيني والعربي، إذ يتم استدعاء المتخيل الجمعي حول الغربة، والاضطهاد، والمطاردة. وهنا يتفاعل النص مع قصائد درويش التي تصف حالة "الملاحَق" في المنافي، كما يتقاطع ضمنيًا مع مشهد الذبيح في الموروث الديني – القرآني على وجه الخصوص – ليمنح "السكين" دلالة مركبة: السكين كأداة قتل مادية، وكأداة تفكيك للذات، وانتهاك مستمر للوجود الفلسطيني، يتكرر "وراء السكين"، بما يوحي بالتكرار المنهجي للعنف.

أما قوله: " **لم نحمل من مدنِ الذكرى / غير حقائب أثقلها الجرحُ وبعض حنين**"؛ فإنه يفعّل تناصًا واضحًا مع شعر المنفى والشتات الذي اتسم به الشعر الفلسطيني بصورةٍ عامة، وكما يتجلى في الموروث الجاهلي حول الحنين إلى الديار، كما في " **قفا نبكِ**"، وغيرها. لكنّ هذا الحنين هنا ليس رجعيًا أو رومانسيًا، بل هو حنين متصدّع، مثقل بالجرح، فاقد لبراءته، والحقائب في هذا السياق لم تعد حقائب المسافر أو العائد، بل حقائب اللاجئ والمطرود، المحملة بالذكريات والتشظيات لا بالبدايات.

يعمل التناص في هذا النص _ وغيره من شعر خالد علي مصطفى_ بوصفه بنية تأسيسية لا زخرفًا أسلوبيًا؛ فهو يربط بين الفردي والجمعي، بين الواقعي والرمزي، ويؤسس لمعنى يتجاوز حدود السياق المباشر، ليصبح النصّ نصًا في نصوص، وذاكرة في ذاكرة. إنّه تناص يحمل طابعًا تراجيديًا، حيث تتراكم النصوص لتشهد على حجم الخسارة والحنين والمقاومة في آن. كما أنّ هذا التناص لا يقتصر على مضمون الخطاب، بل يمتد إلى بنيته البلاغية، فالتكرار ("**السكين وراء السكين**")، والتقابل بين "**الذكرى**" و"**الحنين**"، كلها تعمل على ترسيخ الإيقاع الداخلي للنص، بوصفه صدى لنصوص أخرى، وحوارًا معها، لا تكرارًا لها.

في المحصلة، يمثّل هذا النص مشهدًا شعريًا غنيًا بتناصه العميق والمرن، تناصًا مع الأدب الفلسطيني، والموروث العربي، والرمزية الدينية، وتجربة الشتات الإنسانية، كل ذلك في إطار لغوي مكثّف ومشحون، مجسِّدًا بذلك كيف يمكن للتناص أن يكون أداة لبناء المعنى، وتوسيع الدلالة، وفتح النص على احتمالات التأويل، لا مجرد إحالة مرجعية أو تراثية.

كما تتجلى الرمزيات المختلفة في بنية التناص في قصيدته (رسالة الغفران)، ابتداءً من عنوانها الذي يُحيل إلى الشاعر المعري، وإلى نصه المعروف بالاسم نفسه، فضلًا عن رمزية الإشارة التي يتضمنها العنوان ومضمونه الدلالي،

فتكون الرحلة في هذه الحياة رحلة رؤيوية تستدعي صورة العالم الآخر، وصورة الجحيم، فضلًا عن استدعائها لرحلة العربي في العصور القديمة في وقوفه على الأطلال، (مصطفى، 1989، ص17):

"**هذه السيقان تلتف على أنياب أفعى**

هذه الاعناقُ تبكي طلَلَ الريح العتيقة

أعطني حبلًا وأوتادًا..

رأيتُ الحشرَ يسعى

قاذفًا بالحبلِ والأوتادِ في وادي أساطير الخليقة"

فالنص الشعري هنا يعتمد على بنية التناص مع الموروث الأدبي والديني والأسطوري ليعبّر عن حالة وجودية من الفقد والضياع. في صورة "**السيقان تلتف على أنياب أفعى**"، يستعمل الشاعر رمز الأفعى للإشارة إلى التحول والخطر والموت، وهو تناص مع الأساطير والقصص الدينية. أما "**الأعناق تبكي طلل الريح العتيقة**"، فهي استحضار لصورة الطلل في الشعر الجاهلي، لكنها تصبح هنا "**طلل الريح**"، أي أطلال غير مرئية، تمثل الماضي المندثر والذاكرة المفقودة، والشاعر يواصل عبر "**الحبل والأوتاد** "في سياق ديني وأسطوري، مستحضرًا الحشر، ووداي عبقر في التراث العربي، وأساطير الخليقة في الحضارات الرافدينية القديمة، ليخلط بين بداية الخلق ونهاية العالم. الطلل لا يقتصر على بقايا الأماكن، بل يشير إلى الخراب الوجودي وفقدان المعنى، فتتجلى في النص حالة من التشظي والضياع بين الماضي والحاضر والمستقبل.

كما أن الرمزية تتداخل هنا لتصور الإنسان في مواجهة الزمن والموت، بينما التناصات الثقافية والإشارية تبني نصًا غنيًا يعبر عن صراع داخلي مع الذكريات، والفقد، والبحث عن المعنى في عالم محطم.

هي رحلةُ المضطرِّ إذن، فالوطنُ السَّليب، تغادرهُ مرغمةً خطى بنيه، وتتلفتُ إليه أعينهم بمرارة المقهور، ليأتي الشعر باحثًا عن محاولة للمناورة، وليكون بديلاً للتدفق الحالم باستعادة الوطن السَّليب، معبّراً من خلالها عن رؤية ترفض الاستسلام، وتدعو للمقاومة، (مصطفى، 1972م، ص69):

"**جئتكم من بلاد الثعابين ألدغ موتاكم**

ثمَّ أبعثهم في لهيب البنادق خلقًا جديدا

أنا عيسى الذي لم يُدر خدَّه

أنا موسى الذي يضرب البحر

يفتح بابًا لقافلة المتعبين".

ومن خلال كل هذا الزخم التاريخي والديني الذي يوفره هذا التناص يحاول الشاعر أن يجد في الكلمة سلاحًا من أسلحة المقاومة، وفضاءً آخر يستعيدُ من خلاله الشاعر وجه الوطن_ المعشوق، إنها مواجهة بين الجمال والقبح، بين حياةٍ تصوغها الكلمة، وموتٍ يخلِّفُه الرصاص، ومن ذلك قوله في (البصر_ حيفا)، (مصطفى، 1975):

" **أيتها الحبيبةُ التي تصبُّ وجهها على ذاكرتي**".

إنه تدفُّقٌ حالمٌ باستعادة الوطن، يتلاشى أمام طلل ممتد في كل العالم، متجاوزًا حدود فلسطين إلى حالة الاغتراب والتيه والرحلة التي لا يُعرف مداها. ورغم ما يشوبه من وعيٍ بالظروفِ السياسيةِ والاجتماعيةِ المثيرةِ للإحباط، على المستويين الإقليمي والدولي، فرِحلةُ المقاومةِ طويلة، والظروف السياسية والاجتماعية تنتصب كالجبال عوائق أمام حلم استعادة الوطن، وخذلان الحكومات العربية ينفث الهجير في الوجوه، والدليل إلى تحقيق الحلم غائبٌ عن المشهد.

تجليات الإيحاء والتحوّل بين الواقع والتاريخ:

تحمل نصوص الشاعر دفقًا تصويريًا يشي بعمق المأساة، وغربة المصير، وضياع الوجهة، مما يوجب تأملها لتحليل دلالاتها من خلال مفهوم التناص بوصفه أداة فنية وأسلوبية لتوليد المعنى عبر التفاعل مع نصوص أخرى سابقة أو موازية، سواء كانت تراثية أو دينية أو شعرية معاصرة، يقول الشاعر في (موتى على لائحة الانتظار)، (مصطفى، 1969م):

" **تشمخُ في وجوهنا الجبال،**
تهرَّأت أقدامُنا من الحصى
دون دليلٍ يمسك الطريق
وطوَّقتنا وحشةُ الصحراءِ تنفثُ الهجيرَ في
وجوهنا جذى رمال".

يبدأ النص بصورة جغرافية رمزية: "**تشمخ في وجوهنا الجبال**"، وهي عبارة تنطوي على تناص تصويري ودلالي مع أدب الرحلة والمواجهة في الشعر الجاهلي، فالجبل هنا ليس مجرد عنصر طبيعي، بل رمز للعقبة القاسية والواقع المانع، فهو لا يستقبل المسافر بل يتحداه. يشير هذا إلى تناص ضمني مع الموروث العربي في تصوير الجبال بوصفها شاهدة على التيه والمعاناة، كما في قصائد الحلاج أو المتنبي، حيث تأخذ الطبيعة شكل خصمٍ للإنسان في سعيه إلى الحقيقة أو النجاة.

وفي قوله: " **تهرأت أقدامُنا من الحصى**"، نجد تناصًا مع أدبيات التيه والبؤس الوجودي، حيث تصبح الحركة عبثية والمسير مُنهكًا. وهو ما يستدعي بصورة خفية سرديات الأنبياء في صحراء التيه، وخاصة في قصص موسى عليه وبني إسرائيل، التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم والكتب المقدسة، وكذلك الرحلة الشاقة في السيرة النبوية، مثل الهجرة، والسير في شعاب مكة. تهرؤ الأقدام من الحصى يحيل إلى رحلة فادحة بلا أفق واضح، تتآكل فيها الجسدية بفعل الواقع القاسي.

وتبرز عبارة: " **دون دليلٍ يمسك الطريق**" كتعبير عن التيه المطلق، في تناص مباشر مع القرآن الكريم، حيث الطريق بلا هداية ولا دليل، ويتحول السفر إلى عذاب بلا وجهة. كما يتقاطع هذا المعنى مع الموروث الصوفي، حيث الطريق إلى "الحقيقة" يتطلب مرشدًا، فإن غاب الدليل، ضاع السالك.

أما العبارة: " **وطوَّقتنا وحشةُ الصحراء**"، فتمثِّل لحظة كثيفة الدلالة، حيث تنبني على تناص وجداني ورمزي مع صورة الصحراء في الشعر العربي القديم، لا سيّما في المعلقات، حيث تُستدعى الصحراء كفضاء للعزلة، والتطهير، والمجابهة. ولكن النص هنا يحوّل الصحراء من فضاء تأمل إلى سجن خانق، فهي " **تطوّق**"، وتصبح فاعلًا مؤذيًا " **ينفث الهجير**"، ما يحمّلها صفات الكائن العدائي، لا المكان الخامل.

وفي النهاية، يأتي قوله: "تنفثُ الهجيرَ في وجوهنا جذى رمال"، بوصفه ذروة التوتر، حيث تندمج عناصر الطبيعة **(الهجير، الجذى، الرمال)** في صورة هجومية شاملة. نجد هنا تناصًا مع الأدب القرآني في تصوير جهنم ولهيبها، ومع الشعر العربي في وصف الحرّ واللهيب كعقاب أو تطهير. "**جذى الرمال**" عبارة تستدعي نارًا مدفونة تُقذف في الوجوه، وهي استعارة كثيفة تصور المعاناة وكأنها عقوبة كونية.

إن التناص في هذا النص ليس مجرد استدعاء للصور، بل هو تفاعل حيّ مع السرديات الكبرى: التيه، العذاب، الغربة، والمجابهة. تتشابك فيه إشارات من الموروث الديني (التيه في الصحراء)، والشعري (الشعر الجاهلي)، والصوفي (المسير دون دليل)، وتُعاد صياغتها في سياق شعري حديث يحمل البعد الفلسطيني أو الوجودي عمومًا.

وفي المحصلة، يقدّم النص خطابًا مأساويًا مشبعًا بالتناص الوجداني والرمزي، حيث تتداخل الأسطورة بالدين، والتجربة الجماعية بالمعاناة الفردية، ويصبح المشهد كله مرآة لغربة الإنسان في وجه الجغرافيا، والزمن، والقدر. ويُستثمر التناص هنا لتكثيف الشعور بالخسارة، واستحالة الخروج، وبؤس الأمل.

هذا التدفق الحالم، الذي تجده مبثوثًا في معظم شعره، يرسمُ صورةً مأساويةً يبدو المكانُ من خلالها وجهًا آخر، بموازاة العالم الإنساني؛ فكلاهما (المكان والعالم الإنساني) خاضعان لحركة الزمن_ التاريخ، وفاعليته وتحولاته، كما يتضح في (المعلقة الفلسطينية)، (مصطفى، 1989م):

" **عُدنا إليك مدينة الذكرى**

بلا كتبٍ وأمتعة

تركنا خلفَ بواباتِ مهجرنا صغاراً يحرسون وقائع المنفى وعدنا" .

ولكنَّ هذه الصورة المأساوية تحمل خصوصيتها الزمنية والثقافية؛ فهي بإيحاءاتها الخاصة تقدِّم للمتأمِّل بعدًا يتجاوز مديات التدفق الحالم باستعادة الوطن، إلى الطموح باستعادته، فهي إذ تُمسك بتلابيب الماضي، تتطلَّع في الوقت نفسه إلى المستقبل، إلى الأجيال التي ستأتي وتأخذ دورها في حمل الوصية أو النبوءة، لتحقيق الغاية في تغيير الجانب السيئ من هذا العالم:

" **تركنا خلف بوَّاباتِ مهجرنا صغاراً يحرسون وقائع المنفى**".

هي إذن وقفة للتأمل التاريخي في ضوء واقع مأساوي، وقفة ذات بعدين زمنيين، أحدهما يرتدُّ إلى الماضي مستمدًّا منه قوة الانتماء ويمثِّل نسق التجذُّر الثقافي، وآخر يمدُّ ببصره إلى الأفق البعيد المستقبلي حالمًا وطامحًا باستعادة الوطن في الوقت نفسه، وهكذا يتموضع الشاعر، من خلال كلمة الأمل و(**الغزل**)، في خندق المقاومة، رافضًا الهزيمة والعيش في القهر والمنفى كما يتضح في (غزل في الجحيم)، (مصطفى، 1989م):

" **قلتُ: هيا.. خذي خصلةً**

من حدائق شعركِ، ثم اغزلي منه سوطًا".

ويقول في مقطعٍ آخر من قصيدة أخرى ضمن مجموعته (البصرة_ حيفا)، (مصطفى، 1975):

" **دمنا المشرَّد في جذوع النار**

فاعتصمي بعطرك، وامنحيني خصلةً من شعرك البرّيّ ثمَّ توكَّلي

...أيتها المباركةُ السجينة".

إن توظيف عنصري الزمان والمكان، في شعر (خالد علي مصطفى)، غالبًا ما يأتي مقترنًا بلحظة تاريخية متوترة، لحظة درامية حافلة بالصراع وما يحمله من رمزيات مختلفة بحسب سياق القصيدة، أو السياق العام في شعره: (فلسطين، العراق، الشام، أرض المجوس، المدينة، قراقر، بغداد، البصرة، حيفا، الحدائق، الصحراء، الشوارع، الطُرُق، الجحيم، الكهوف، الفرات.. الخ).

أساليب التناص:

وفي شعر (خالد علي مصطفى) عامةً؛ ثمة اتِّحاد أو موازنة خفية، بين ما كان وما هو كائن، بين الرموز والشاعر أو فلسطين، وثمة مرونة في توظيف التناص يلتقي فيها التناصُّ الديني بالتاريخي والأدبي وغيره، مما يجعله يجري سيَّالاً منصهراً متفاعلاً، تتداخل فيه أحداثٌ وأقوال من أزمنةٍ وأمكنةٍ شتى لشخصيات مختلفة، فكأن النص يماثل ما وصفته جوليا كرستيفا بأنه لوحة فسيفسائية من الاقتباسات (الغذامي، 1985م، 318). وتسمحُ هذه المرونة بذوبان حدود تلك العناصر وتداخلها، فنراها تتبادل الأدوار والمواقع بصيغةٍ حُلميةٍ، وسريالية أحيانًا، كما تتداخل الألوان والأشكال في لوحات (سلفادور دالي)، وهذا الأسلوب في شعره سمة أصيلة من سمات الحداثة الشعرية (المباركي، ص41)، و(اسماعيل، 1972). وهذه التفاعلات النصية في شعره كثيراً ما يطغى عليها عنصر الصراع (مصطفى، 1975):

" **رأيتُ في المنام أن الطرقَ التي سلكتُها**

تخرج من أصابعي

وبعد أن تدور حول الليل والنهار،

تركب البروق والبروج

تلبس الكهوف والخلجان

تعود من سفارها، وتنتهي إلى أصابعي".

تبدأُ رحلةُ الشاعر في هذا المقطع من منطقة الخيال (الحلم)، وتنتهي بعودته إلى الواقع (الأصابع) في إشارةٍ إلى فعل الكتابة الإبداعية، بوصفه نوعًا من المقاومة، ضمن تجليات دلالية تستدعي للذهن رحلة النبي يوسف (ع) ومعاناته. وهكذا تذوب الحدود الزمكانية والنصِّيّة بين الرموز والأحداث والأقوال، وتنصهر في نَصِّ الشاعر وعالمه الخاص ضمن وحدة جديدة، تمثِّلها قدرته الفنية والمرونة العالية في توظيف التناص ضمن صيغ أسلوبية تشتبك فيها النصوص والشخصيات والأزمنة والأمكنة.

في قصيدته (**ملاح الصحراء**) نجد هذه (المرونة التناصِّيّة) في أوجها، إذ تتحدُّ شخصيَّة الشاعر بوصفه مقاومًا فلسطينيًّا، بالرمز الديني والتاريخي الإمام الحسين (ع)، الذي تشير إليه القصيدة بإحدى كناه (**السبط**)، من غير أن تذكر اسمه الصريح. لماذا السبط تحديداً؟، لأن هذه (الكنية) بحسب ما يدلُّ عليه السياق العام في هذه القصيدة، وفي شعر (خالد علي مصطفى) بصورة عامة، تنسجم مع نسق التجذُّر الثقافي في شعره؛ فكنية (السبط) هي الألصق دلاليًا في التعبير عن علاقة الحفيد بالجدِّ عن طريق الأم. والأم هي الوطن في شعره: ((**القدس أنجبتني**))_(**سفر بين الينابيع**).

وفي حدودها الأوسع هي الأمة التي استسلمت لجلاديها، وخذلت أحفادها في لحظة المواجهة الحاسمة، وتركت (المقاوم_ السبط) يواجه مصيره المأساوي وحيداً صابراً، ومثلما هتف الإمام الثائرُ بوجه قاتليه بحسب المأثور الشعبي: (يا سيوف خذيني)، يهتف الشاعر_ المقاوم في (موتى على لائحة الانتظار)، (مصطفى، 1969م):

" **مياه الفراتِ، من النبع، يحسبها الصولجانُ مصبًّا أخير**

على جبهتي:

تلتقي النارُ فيها بكفِّ الأمير!

هلمَّ احرق النهرَ فوق ذؤابة رُمحك".

ومع تعلّق سياق القصيدة بواقعة كربلاء وشخصياتها بالدرجة الأولى، فثمة وشائج إضافية يوفرها التناص في شعره الذي يستدعي إلى ذهن المتلقي أمكنةً وأزمنةً وأحداثاً وأقوالاً أخرى؛ تصهرها القصيدة في قالب أسلوبي موحَّد، يخاطب (الملاحُ) (الأميرَ) (مصطفى، 1969م):

" **دع الصولجان يفكُّ القيودَ عن النهر...**

وشاحك مزَّقهُ صوتُ المآذن في شبحي كالصدأ

وأنت على جبهتي قد لمستك جسراً لأرض المجوس...

أما سال ذلّاً قُراقر

عيون الجراد بأمواجه من خناجر...

على جبلِ الطورِ ماتت رؤى الوحي بين رمالٍ وشوك".

إنها لوحةُ صراعٍ درامي يلتقي فيها الحاضر بالتاريخ والدين والسياسة، وينبض بها خطاب (الملاح) رمز المقاوم الفلسطيني المنتمي لجذوره الثقافية العميقة، والمثقف الذي يحمل هموم شعبه ساعيًا نحو التغيير، وبين (الأمير) رمز التسلط والخذلان، هو خطابٌ بين الضحية والجلاد، الضحية بكل حمولتها الثقافية، والجلاد الذي يكنيه خطابُ الملّاح بـ(الصولجان) في إشارةٍ إلى التعسف والإكراه الذي يمارسه تجاه الشعب المقهور.

وإذ تنتمي شخصية (الملاح) لجذورها التاريخية والثقافية، فإنَّ شخصية (الأمير) تبدو منبتة الصلة بهذا التاريخ وبتلك الثقافة، بل هي (جسرٌ لأرض المجوس)، أي مجرد أداة يتحكم بها الأجنبي. ويسأل الملاحُ المسافرُ أبداً على أسنة الرماح، بين الأزمنة والأمكنة، ليضع اليد على مفارقات التاريخ وأحداثه: (**أما سال ذلّاً قُراقر..عيون الجراد بأمواجه من خناجر؟!**). مشيراً _على الأرجح_ إلى توحد القبائل العربية في يوم ذي قار، وأحد أيامه المعروفة (**يوم قُراقر**)، الذي ذكره الأعشى في شعره (الأعشى، ص259):

" **فِدىً لِبَنِي ذُهلِ ابنِ شيبان ناقتي وراكبها يومَ اللقاءِ وقلَّتِ**

هُمُ ضربوا بالحِنوِ حِنوِ قُراقرٍ مُقّدِمةَ الهامَرزِ حتَّى تولَّتِ"

أشار الشاعر إلى تلك الواقعة التي انتصر فيها العرب على الإمبراطورية الفارسية، وإلى تفرقهم لاحقاً، وخذلانهم لأنفسهم ورموز مقاومتهم. من خلال هذه الأمثلة نجد أن العالم الشعري كثيراً ما يتمحور حول شخصية (البطل المقاوم) وينقسم على أزمنة وأمكنة مختلفة متداخلة بصورة معقدة، ويعاني من أزمتي الغربة والاغتراب عن عالمه الواقعي، الذي

أسهمت بتشويهه تدخلات القوى الاستعمارية الكبرى، مقتنصةً أزمةَ التراجع الحضاري لدى العرب والمسلمين. هذا النوع من الاغتراب يذكرنا بما يشير إليه إريك فروم في كتابه (المجتمع السوي)، حين يتحدث عن أنواع الاغتراب وتاريخه ابتداءً من الأنبياء وانتهاءً بالعصر الحديث (فروم، 231-265).

إنَّ هذه المرونة الأسلوبية في توظيف التناص، مع الغوص الشعري في الغرابة أو الإغراب، والاستعمالات الاستعارية المكثَّفة تجعل شعر (خالد علي مصطفى) حافلًا بانزياحاتٍ متلاحقةٍ مكثفةٍ، تتجلَّى بصورٍ متنوعة وأساليبَ شتى، ولعلَّ هذه الخصوصية الأسلوبية قد منحته تمايزاً ملحوظًا عما سواه من نصوص (شعراء البيان الشعري).

وكثيراً ما وُصف شعره من قبل النقاد والباحثين بالغموض والكثافة الشديدة، (ينظر: خضير، 2012م، ص173-174)، و:(اللجماوي، 2011، ص182)، و:(الكبيسي، 1979م، ص85). وقد أشار الدكتور محسن اطيمش إلى هذه الخصوصية في شعره، موضحًا بأن هذا الغموض لم يأت نتيجة غيابٍ في الوضوح الذهني بالنسبة لما يريده الشاعر، بل هو نابعٌ من قصديَّةٍ فكريةٍ، ووعيٍ شديدٍ، وقدرةٍ على رصد الأفكار ضمن نسيجٍ شعريٍّ، (اطيمش، 1982، ص95).

لقد خلَّف لنا الشاعر الفلسطيني الراحل (خالد علي مصطفى) نصوصًا غنية بتجربتها الإبداعية، وذات طاقةٍ فنية وثقافية مكثَّفة وموحية، قد يختلف فيها الباحثون بحسب تلقِّي النص وتأويلاته.

النتائج

لقد أحرز التناص في شعر خالد علي مصطفى درجة عالية من المرونة التأويلية، أسهمت في خلق تفاعل دينامي بين النص والمتلقي، وأنتجت خصوصية أسلوبية ودلالية متميزة. وقد تجلّت هذه المرونة في نسج النص الشعري لعلاقاته التناصية مع خطابات متعددة المشارب، من بينها الخطاب الأسطوري، والقرآني، والتاريخي، والأدبي ولا سيما الشعري منه، مما أضفى على التجربة الشعرية أفقًا تأويليًا مركبًا.

هذا التفاعل لا يأخذ صورة نمطية واحدة؛ إذ تختلف تمثلاته باختلاف الخطابات التي يُبنى عليها، وتتنوع تجلياته بحسب النصوص المنتمية إلى الخطاب الواحد، مما يفتح المجال أمام قراءات مختلفة تُراعي الخصوصيات الفنية والتاريخية والمعرفية لكل نصٍّ على حدة. وأمكن توظيف الشاعر للتناص من تحقيق قدر كبير من الانزياح، وتنويع الأبعاد الدلالية للنص الشعري، مما جعله مفتوحًا أمام تعدد القراءات.

المصـــادر

أولا: القرآن الكريم.

ثانيًا: الكتب والدواوين والدراسات:

1- اسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط2، 1972م.

2- الأعشى، ميمون بن قيس. ديوان الأعشى. شرح وتحقيق: محمد حسين. مكتبة الآداب، د.ت.

3- اطيمش، د. محسن. دير الملاك: دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر. منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، 1982م.

4- باختين، ميخائيل. الكلمة في الرواية. ترجمة: يوسف حلاق. دار المعارف، 2000م.

5- خضير، عزالدين صخي. تحولات النص الستيني: شعراء البيان الشعري أنموذجًا. رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1433هـ/2012م.
6- الغذامي، عبد الله. الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية. ط1، النادي الأدبي الثقافي، 1985م.
7- فروم، إريك. المجتمع السوي. ترجمة: محمود منقذ الهاشمي. دار الحوار، 2000م.
8- الكبيسي، طراد. الغابة والفصول: كتابات نقدية. الكتاب الثاني من "شجر الغابة الحجري". منشورات وزارة الثقافة والفنون، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1979م.
9- كرستيفا، جوليا. علم النص. ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم. دار توبقال للنشر، 1997م.
10- اللجماوي، زينب هادي حسن. الإغراب في الشعر العراقي المعاصر: جيل الستينات. دار الفراهيدي، ط1، 2011م.
11- المباركي، جمال. التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر. رابطة الإبداع الأدبية الثقافية، الجزائر.
12- مصطفى، خالد علي. البصرة – حيفا، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975م.
13- مصطفى، خالد علي. سفر بين الينابيع، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد، 1972م.
14- مصطفى، خالد علي. غزل في الجحيم. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989م.
15- مصطفى، خالد علي. المعلقة الفلسطينية. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989م.
16- مصطفى، خالد علي. موتى على لائحة الانتظار. مطبعة الغري الحديثة، النجف، ط1، 1969م.
17- الهاشمي، د. شاكر عجيل، تشكيلية القصيدة البصرية في شعر فاضل العزاوي_ صاعدًا نحو الينبوع أنموذجًا، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية/ العدد السادس والعشرون/كلية الآداب، جامعة واسط، سنة 2017م. https://lark.uowasit.edu.iq/index.php/lark/article/view/402/319

Sources

First: The Holy Qur'an.

Second: Books, Diwans, and Studies:

1. Ismail, Ezzeddin. Contemporary Arabic Poetry, Dar Al-Awda and Dar Al-Thaqafa, Beirut, 2nd edition, 1972.
2. Al-A'sha, Maymun ibn Qays. Diwan al-A'sha. Edited and explained by: Muhammad Hussein. Al-Adab Library, n.d.
3. Taimish, Dr. Mohsen. Dayr al-Malak: A Critical Study of Artistic Phenomena in Contemporary Iraqi Poetry. Publications of the Ministry of Culture and Information, Dar Al-Rasheed, Baghdad, 1982.
4. Bakhtin, Mikhail. The Word in the Novel. Translated by: Youssef Hallak. Dar Al-Ma'arif, 2000.

5. Khudair, Azedine Sakhi. Transformations of the Sixties Text: The Poets of the Poetic Declaration as a Model. Master's Thesis, College of Arts, Al-Mustansiriya University, 1433 AH / 2012 AD.
6. Al-Ghadhami, Abdullah. Sin and Atonement: From Structuralism to Deconstruction. 1st ed., Cultural Literary Club, 1985.
7. Fromm, Erich. The Sane Society. Translated by: Mahmoud Munqidh Al-Hashimi. Dar Al-Hiwar, 2000.
8. Al-Kubaisi, Tarad. The Forest and the Seasons: Critical Writings. Second book from The Petrified Forest Tree. Publications of the Ministry of Culture and Arts, Dar Al-Rasheed Publishing, Baghdad, 1979.
9. Kristeva, Julia. Textual Science (Semiotics). Translated by: Farid Al-Zahi, Reviewed by: Abdel Jalil Nazem. Dar Toubkal Publishing, 1997.
10. Al-Lajmawi, Zainab Hadi Hassan. Estrangement in Contemporary Iraqi Poetry: The Sixties Generation. Al-Farahidi Publishing House, 1st ed., 2011.
11. Al-Mubarki, Jamal. Intertextuality and Its Aesthetics in Contemporary Algerian Poetry. The Literary and Cultural Creativity Association, Algeria.
12. Mustafa, Khalid Ali. Basra – Haifa. Publications of the Ministry of Information, Dar Al-Hurriya Printing, Baghdad, 1975.
13. Mustafa, Khalid Ali. A Journey Between the Springs. Ministry of Information, Directorate of General Culture, Baghdad, 1972.
14. Mustafa, Khalid Ali. Love in Hell. General Cultural Affairs House, Baghdad, 1st ed., 1989.
15. Mustafa, Khalid Ali. The Palestinian Mu‘allaqa. General Cultural Affairs House, Baghdad, 1st ed., 1989.
16. Mustafa, Khalid Ali. Dead on the Waiting List. Al-Ghari Modern Press, Najaf, 1st ed., 1969.
17. Al-Hashimi, Dr. Shaker Ajeel. The Visual Formation of the Poem in the Poetry of Fadhil Al-Azzawi – "Ascending Toward the Spring" as a Model. Lark Journal for Philosophy, Linguistics, and Social Sciences / Issue 26 / College of Arts, University of Wasit, 2017. https://lark.uowasit.edu.iq/index.php/lark/article/view/402/319